التَّغَيُّرَاتُ الحَرَكِيَّة فِيْ القِرِاءَاتِ القرآنيَّة فِي ضَوءِ الدَّرس اللسَانِيِّ المُعَاصِر

إعداد

فاطمة بنت عبد الرحمن الشِّهْري

كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى –المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تُعَدُّ القِراءةُ القُرآنيةُ أَحَدَ أضلاعِ المُثلّث الّذِي يشكّل المادّة اللّسَانية اللازمة لكتابة تاريخ اللّسانِ العربيّ، وهي مِنْ أَوْثقِ الوَثَائِقِ التي تُصورُ لنَا ما كانتْ عليهِ العربيّةُ وقتَ نزولِ القرآنِ، إذْ نَقلتْ لنَا عددًا مِنْ اللّهجاتِ والأَنماطِ النُّطقيّةِ والعاداتِ الكلاميّة في ذلكَ الوقتِ . حاولَ هذا البحثُ معتمدًا على المنهج التحليليّ الوصفيّ، الوقوفَ على التَّغيراتِ التي مَنْشؤها "الحَرَكة" بنَوعَيّها الطويلة والقصيرة في القِراءاتِ القرآنية، وتَتَبُّعَ اللهجات التي ترجع إليها هذه القراءات، مع محاولةِ الوقوفِ على الاختلافاتِ في تَوجيهِ القِراءاتِ القُرآنيَّة التي كَانتْ نَاتجَةً عنْ عِلل وَظواهِرَ صوتيَّة وصرفيَّة، وعرضِها ودراستِها في ضوءِ اللسانيَّات الحديثةِ ونظريَّاتِها. وكانَ منْ أبرزِ النَّتائجِ في هذا البحث: أنَّ وزنَ (فَعْل) بفتحِ أوّلهِ وسكون ثانيه، هو وزنٌ لصفةٍ لمْ يَذْكُرْهُ الصَّرفيُّون فيْ مُجْمَلِ أَوْزانِ الصَّفات التي تجيُء منْ الأفعالِ التي تكونُ على وزنِ (فَعِل)بفتح الأول وكسر الثاني.

الكلمات المفتاحية: الحَركَة، القِراءةُ الشَّاذّة، التَّسكين، الإشْباع، الإتْباع، أشْبَاهُ الصّوائت.

Abstract:

The Qur'anic reading is considered one of the sides of the triangle that constitutes the linguistic material necessary to present the note on the history of the Arabic lingua, it is one of the most reliable documents which depicts for us what the Arabic language was upon at the time of the revelation of the Qur'an, as it conveyed to us a number of dialects, pronunciation patterns, and speech habits at that time. This research, based on the descriptive analytical method, attempted to study the changes based on the "Linguistic movement" of both types (long and short) in the Qur'anic readings, and to trace the dialects to which these readings refer, as well as studying the differences in the direction of the Quranic readings that were the result of phonetic and morphological reasons and phenomena, also it is presented and studied in the light of modern linguistics and its theories. One of the most prominent results in this research was: morphological balance of (verb); the vowel first letter and the silent second letter is the morphological balance of an adjective that the morphologists did not mention in the total morphological balance of adjectives that come from the verbs that have morphological balance of (verb); the vowel first letter and the second is breaking.

Keywords: : linguistic movement, rare reading, analgesia, fulfillment, paronomase, phonemes.

مقدمة

تُعَدُّ الحركةُ عنصرًا مُهمًّا في الكَلامِ و لا تَقومُ بنيةُ الكلمةِ في العربيَّة إلا بها، وهيَ تَتقاسمُ معَ الحروفِ تشكيلَ المفردات، ويُطلِقُ عَليها المُحْدثُونَ مصطلحَ (الصَّوائت) والصَّوائتُ نوعان : الصَّائتُ القصير: الفتحةُ والكَسرةُ والضمّة، والصَّائتُ الطَّويل أو ما يُعرفُ بحروفِ العِلَّة :اليَاءُ والألفُ والواو، ويُشترطُ في الصوائت الطويلة أنْ يَسبقُها حركةٌ منْ جنسها، وإلّا خرجتْ إلى نوعٍ آخر يُطلقُ عليه المحدثون ب(أشباه الصوائت)، كما أنَّ الصوائت لها الدَّور الكبير في المعاني وفي الصِّيغ، فتبادلُ الحركات على الموضع الواحد من الكلمة ينتجُ معنًى مغايرًا وجديدًا، وهو أمرٌ يمكنُ ملاحظته في القراءات القرآنيَّة التي تعددتْ واختلفتْ في صورها .

والقراءة القرآنية هي :"اختلاف ألفاظ الوحيّ المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيفٍ وتثقيلٍ وغيرهما ." [1] فالقراءاتُ في أساسِها قائمة على عنصر الاختلاف، وكثير من هذا ناتج عن تغيُّر حركي، إمّا بتعاقب الحركات القصيرة على الحرف، فتكون هناك قراءة بالضَّم، وأخرى قُرِأتْ بالكَسْرِ وثالثة بالفتحِ مِنْ المَوضعِ نِفْسهِ منْ الكلمَةِ، أو قد يكون التَّغير ناتجًا عن تسكين المتحرَّك أو تحريك السَّاكن، أو قد تكونُ عملية إتباع للحركات داخل الكلمة، أو عملية مَطَل وإشباع للحركةِ، لتنتقلَ من حركةٍ قصيرةٍ إلى حركةٍ طويلةٍ، وغيرها منْ العمليّات المتعلقةِ بالحركةِ، وقدْ يَلحَقُ كلَّ تلك العمليات اختلافٌ وتغيرٌ في الكلمةِ، وَقَدْ تنبَّه العلماءُ المتقدّمون لهذه الفُروقات والتَّغيراتِ بين القراءاتِ القرآنية ، وتتبعوا منشأها ومعْرفة عِلَلِها، فكانتْ لهم مُصنّفات عَنيت بذلك كُلِّه مثل كتاب (الحُجَّة) للفارسي، (المُحْتَسَب) لابن جنّي، (الكَشْف) لمكّي بن أبي طالب وغيرها .

ولمَّا كانتْ القراءاتُ القرآنيَّةُ مِن أوثقِ الوثائقِ التي تصوّرُ لنَا ما كانتْ عليهِ العربيَّةُ في المجالاتِ الصَّوتيَّة والصَّرفيّة والدِّلاليَّة و "أحد أضلاع المثلث الذي يشكِّل المادة

[1] - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 318/1

اللسانية اللازمة لكتابة تاريخ اللسان العربي"[1]، ومصدرًا أصيلًا لمعرفةِ الأنماط النُّطقيّةِ والعاداتِ الكلاميَّة التي كانَ عليها العربُ وقتَ نزولِ القرآنِ وقبْلَهُ، حاولَ البحثُ عرضَ هذهِ التَّغيراتِ الخَاصَّةِ بالحِركاتِ في القراءاتِ القرآنيّةِ على الدَّرس اللِّسانيّ الحديثِ، كما حاولَ الوقوفَ على تلكَ الاختلافاتِ ودراستها ؛ لأنّ بعضَ تلكَ التَّغيراتِ التي تَطرأُ على بنيةِ الكلمةِ ناتجةٌ عنْ تفاعلات صوتيَّة مَحضَة، كما حاولَ الوقوفَ عَلى الاختلافاتِ في توجيهِ القراءاتِ القرآنيّة التي كانتْ ناتجة عنْ علل وظواهرَ صوتيَّةٍ وصرفيَّةٍ، وعَرْضِها ودراستِها مِنْ مَنْظورِ النَّظرياتِ اللغويّة الحِديثةِ مع الإفادةِ منْ أراء العُلماءِ المتقدّمين فيها، فجاءت هذه الدِّراسة في أربعةِ مباحثٍ، وهي كالآتي :

• المبحث الأول : تَسْكِينُ المُتَحرّك وتَحْرِيك السَّاكن.

المبحث الثاني :الإشباعُ الحَرَكِيّ.

المبحث الثالث : إتباعُ الحَرَكَةِ بالحَرَكَةِ .

• المبحث الرابع : الحركاتُ على حُروفِ اللين.

خاتمة فيها أهم النتائج .

المبحث الأول: تسكينُ المُتَحَرّك و تَحْريكُ السَّاكِنِ:

اُخْتلفَ في الأَصلِ في الكلماتِ الثُّلاثيَّة ساكنةِ العينِ، هل الأصلُ فِيها السُّكون أم التَّحريك، فذهبَ فريقٌ مِنهم :إبراهيم أنيس إلى : "أنَّ الأصلَ في الكَلماتِ السُّكونِ، وأنَّ الصِّيغَ المَتحركة هي الفرعيَّة"،وهذه نتيجةٌ خَلُص إليها من دراسة تاريخية لصيغ (الاسم الثلاثي المجرد)[2] في العربية وأخواتها السَّاميَّة، وإحصاءٍ للكلمات الثلاثيّة في القرآنِ الكريمِ، وفي اللهجاتِ الحديثةِ. وعارضه خالد حسَّان في ذلك إذ يرى "أنَّ ما

[1] -عبد اللطيف الخطيب، مقدمة معجم القراءات القرآنية .

[2] - عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، مكتبة الخانجي، ط1، 1987م، 327.

ذهبَ إليهِ إبراهيم أنيس يتعارض مع مبدأ السّهولةِ والتَّيسيرِ في الكَلامِ ومعَ ميلِ اللغةِ إلى التَّخفيفِ بالإيجازِ والاختصارِ، إذ كيفَ ينتقلُ الإنسان في نطقهِ مِنْ الأخفِ إلى الخفيفِ؟ فالفتحةُ أخفُّ الحركاتِ، والتَّسكينُ أخفُّ من الفَتحةِ، وأنّ العكس هو ما حدث، فالأصل هو التحريك ثم حدث التسكين بعد ذلك" [1]، وممَّا يؤيّد هذا الرَّأي ملاحظةُ عبدالصبور شاهين الذي يرى أنَّ السُّلوك المقطعي في اللغة العربية يكره توالي الحركات، ويَعْمد دائماً إلى اختصارها، فإذا توالت ثلاث حركات اختصرها إلى اثنتين، وإذا توالت حركتان مكروهتان كضمة وكسرة، حُذفتْ إحداهما وأُطيلت الأخرى.[2]

فنجدُ بعضَ القراءات القرآنيَّة تختلفُ في تسكينِ المتحرّك في بنيةِ الكلمةِ ومنْ ذلكَ قوله تعالى:﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3] قرأ يعقوبُ والحَسَنُ (نَحْسَاتٍ)بسكون الحاء، وقرأَ أبو جعفر والأَعْمَشُ وخَلَفُ (نَحِسات) بكسر الحاء[4]. والنَّحْس في اللُّغةِ : الجُهْدُ والضُّرُّ . والنَّحْسُ: خِلافُ السَّعدِ وقيلَ النَّحْسُ الرّيح ذاتُ الغُبار، وقيل الرّيح أيًّا كانتْ، والعربُ تُسمّي الريح الباردة إذا أدْبَرَتْ (نَحْسًا) والأيَّامُ النَّحِساتُ هي المشؤومات عليهم.[5]

واختلفتْ القراءتان (نَحْسَاتٍ) (نَحِسَاتٍ) في حركةِ الصَّامتِ الثَّاني بين الكَسرِ والتَّسكينِ، ففي قراءة أبي جعفر والأَعْمَش تتابعتْ فيها حركةُ الفتح ثم الكسر، والانتقالُ من الفتحِ إلى الكسرِ أصعبُ في حركةِ اللِّسان ؛ فهو انتقال من موضع النّطق بالفتحة التي هي حركةٌ واسعةٌ إلى موضع النُّطق بالكسرِ، والكسرةُ تعتبرُ حركة أماميَّة ضيّقة، في حين أنَّ قراءة (نَحْسَاتٍ) انتقالٌ من الفتحِ للسكون الذي هو انعدامٌ للحركةِ

[1] -خالد حسَّان، في اللسانيات العربية المعاصرة، مكتبة الآداب، ط2، 2014 م، 79.
[2] - عبد الصبور شاهين المنهج الصوتي للبنية العربية، 185، ينظر خالد حسّان، في اللسانيات العربية المعاصرة، 80.
[3] -سورة فصلت 16/14.
[4] - عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات القرآنية2002م 271/18
[5] - ابن منظور، لسان العرب (نحس) 226/6

وهو أسهلُ في عمليّةِ الكلام، ويُتَخلَّص من حركة الصامت الثاني طلبًا للخفَّة النُّطقية. وقراءة (نَحِسَاتٍ) بالكسر فهي جَمعٌ، والجمع بالألف والتاء مطَّرد في صفةِ ما لا يُعقل كـ ﴿أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾[1]. وهي صفةٌ مشتقةٌ منْ الثُّلاثي (نَحِس) على وزن (فَعِل)، وحُجَّةُ منْ كسرَ أنَّه حملَهُ على معنى النَّسب، كأنَّه في التقديرِ : ذوات نُحُوس، فهو أيضًا صفةٌ من بابِ فَرِقَ وبَرِقَ، فقياسه أن يكون على (فَعِلَ يَفْعَل) وإنْ لمْ يُستعمَل كما قالوا :(شديد) فاستُعملَ على أنّه منْ (شدَّد) ولَمْ يُستعملْ شَدَّ، واستغنوا عنه بـ : (اشتَدَّ) ولكنَّه على التَّوهم أنَّه قد اُستعمل، فنَحِسات بالكسر أتى على توهّم الاستعمال .[2]

أمّا قراءة (نَحْسَات) فتحتملُ ثلاثة أوجه : أحدها: أنْ يكونَ مخفّفًا منْ (فَعِل) في القراءة السابقة (نَحِساتٍ)، فَحُذفت الكسرةُ للتَّخفيفِ وعليهِ يَبقى المعنى.[3]

والثاني: أنَّه مصدرٌ وُصِفَ به كـ (رَجُلٌ عَدْل). إلا أنَّ هذا يُضْعِفُه الجَمعُ فإنَّ الفصيحَ في المصدر الموصوف أن يُوحَّد، وكأنَّ المسوغ للجَمعِ اختلافُ أنواعه في الأصل.[4]

والثالث: أنَّه صفةٌ مستقلةُ على (فَعْل) بسكونِ العين. ولكنَّ أهل التَّصريف لم يذكروا في الصَّفَةَ الجائيةَ من (فَعِل) بكسر العين، إلا أوزانا محصورة ليس منها (فَعْل) بالسكون فذكروا: حَوِرَ فهو أحْور، وشَبِع فهو شبعان، وسَلِمَ فهو سَالم، وبَلِيَ فهو بَالٍ. لكنْ نجدُ أنّ القراءة (نَحْسَات) تُعطي دليلًا على وجودِ صفةٍ ساكنةِ العين من (نَحِس) بكسر العين، لا سيما أنّها قراءة صحيحة متواترة وهي قراءة نافع وابن كثير . وهذا أمر يعطي دليلًا آخر على إهمال الكتب الصرفية الاستدلالَ بالقراءات القرآنية أو التمثيل بها أو الاعتماد عليها في التقعيد باعتبار كون (نَحْسات) صفة مستقلة على وزن (فَعْل).

[1] -البقرة 203/2
[2] - مكي بن أبي طالب، الكَشْف، 247/2
[3] - النحاس، إعراب القرآن 38/4
[4] -الزمخشري، الكشّاف عن حقائق التنزيل 139/4، السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 518/9

أمَا ما كان في جانب الدلالة فقد جاء في قراءة (نَحِسات) مايلي :

الأول : ما جاءَ على قولِ مجاهد وأبو عبيدة من أنَّها من الشؤم، فتكون أيامًا مشائيم، وهو من النَّحس المعروف [1]؛ لأنَّ المعنى في قوله تعالى :﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾[2] يوم شؤمٍ، وعليه كان الاعتماد في تفسير(نَحِسات) بأنهنَّ الأيَّام المشؤمات . الثاني : أنّها الأيام شديدة البرد، قال الضَّحَّاك : " شديدة البرد، وحتى كانَ البردُ عليهم عذابًا لهم"[3] جاء في اللّسان : " والعربُ تسمّي الريحَ الباردةَ إذا أدْبرتْ نَحْساً"[4]، وقد رُوى (نَحْس) بمعنى بارد :

كَأَنَّ سُلَافَةً عَرَضَتْ بِنَحْسٍ يَخِيلُ شَقِيقُهَا الْمَاءَ الزُّلَالَا[5]

ونشير أيضًا إلى أنَّ بعض القراءاتِ يكونُ الاختلافُ فيها قائما على تحركيكِ السَّاكن، وقد يكونُ هذا الساكن حلقيّا، والحروفُ الحلقيّةُ يتلاءمُ معها الفتحُ غالبًا، وذلك بحكمِ طبيعتِها فهي تحتاجُ عندَ صدورِها إلى اتّساعٍ في مَجْراها، والفتحُ أخفُّ الحركاتِ باتفاقِ المعاصرين والمتقدمين، وذهبَ سيبويه إلى أنَّ الفتحةَ لا تخفَّفُ، لكنَّ بعضَ الحروفِ الحلقيَّة المفتوحة طَرأَ عليها التَّسكينُ، فإذا كانتْ الفتحةُ أخفَّ الحركات، فالسكون الذي هو انعدام الحركة يُعتَبرُ تخفيفًا للخفيف، لأنَّ الميل إلى حذفِ الحركات يكون لغايةِ الخفَّةِ والتسهيل النُّطقي، ومثال ذلك: قوله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾[6] قرأ حفصٌ عن عاصم (دَأَبًا) .وقرأ أبو جعفر ويعقوب (دأْبا) [7]. والدَّأب في اللغة: العَادةُ والمُلازمة، ودَأَبَ فلانٌ في عَملِه أي:

[1] -مكي بن أبي طالب، الكشف، 247/2،
[2] - القمر 19/54
[3] - ابن منظور، لسان العرب مادة (نحس) 227/6.
[4] أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد، دار الفكر بيروت، 1999م،470/7 .
[5] - البيت لابن الأحمر من بحر (الوافر) ينظر لسان العرب مادة (نحس) 227/6.
[6] - سورة يوسف 47/12.
[7] - عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات ، 277/4.

جَدَّ وتعب[1].وجاء في معناها أيضًا الشَّأن والعادة، قال الفرَّاء : أصله من دَأْبت، إلا أنَّ العربَ حَوَّلتْ معناها إلى الشَّأن فيُقال : هذا دَأْبُك وديدنك، كُلُّه مِن العَادة "[2]

والقراءات مختلفةٌ حول الصَّامت الثاني (دَأَبًا) و(دَأْبًا) بالسُّكون والتحريك، والدَّأَب والدَّأْب بمعنى واحد، كما قالوا ضَأَن ضَأْن ومَعَز ومَعْز بفتح العين وسكونها، يقول الفرَّاء : "وكذلك كلُّ حرفٍ فُتِحَ أوّلُه وسُكِّن ثانيه فتثقيلُه جائزٌ إذا كان ثانيه همزة أو عيناً أو غيناً أو حاءً أو خاءً أو هاءً" [3]. فمن فتح الهمزة في (دأَبًا) ومن أسكن جعله مصدر (دأَبتُ) وفتح الهمزة في الفعل هو المشهور عند أهل اللغة والفتح والإسكان في المصدر لغتان كقولهم: النَّهَر النَّهْر ".[4]

والإسكان في "دَأْب "أكثر، والفتح لغة، وقبيلة عُقيل مشهورة بفتح أصوات الحلق . يقول خالد حسّان :" تميلُ بني تميم وعُقيل إلى الفتح عندما يكون الصامت من أصوات الحلق وتلك ظاهرة سامية قديمة"[5]وميلهم إلى الفتح هو نوعٌ من الانسجامِ بين الصوت الحلقي وحركة الفتح إذ بينهما تلاؤمٌ نطقي، يقول ابن جني : "ومذهبُ البغداديين أنَّ التحريك في الثّاني من هذا النَّحو إنَّما هو لأجل حرف الحلق " [6] وقد أكّدَ الصوتيون أنَّ الحروف الحلقية تؤثِر الفتحة، كما أكَّدتْ التجارب الحديثة ارتباطا وثيقًا بين النُّطق بحروف الحلق والفتحة ؛وذلك لأنّ الأصوات الحلقية تناسب في الغالب وضعًا خاصًّا للسان يتفق مع وضع اللسان مع الفتحة .[7] والفتحة والحركات القصيرة بصفةٍ عامة من حيث مخرجها تخرجُ من البلعوم إلى الفم دون أنْ يكونَ هناك عائقٌ أثناء المرور، كما أنّها مجهورة يهتزُّ معها الوتران الصوتيان، واللسان يكون

[1] -ابن منظور، لسان العرب (دأب) 368/1.
[2] -الزبيدي، تاج العروس (دأب) 389/1، ابن منظور، لسان العرب (دأب) 369/1.
[3] -الفراء، معاني القرآن 47/2.
[4] **ابن قتيبة، مشكل إعراب القرآن، 432/1**
[5] - خالد حسان، في اللسانيات العربية المعاصرة 98
[6] -ابن جني، المحتسب 234/1
[7] - إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة مكتبة الانجلو، د.ت،42

مستويًا في قاعِ الفمِ ولا يرتفع عند النُّطق بالفتحة لا مقدّمته ولا وسطه والشفتان في وضعِ حيادٍ طبيعي.

فقراءة (دأْب) بتسكين الصامت الثاني، نلحظ أن الإسكان أخفُّ من الفتحةِ، فتسكين المتحرّك سبيلٌ للتخفيف وهو دأب القبائل البدوية، رغم أن سيبويه كان يرفض تخفيف الفتحة[1] باعتبارها الأخفُّ بين الحركات، لكنَّ القراءات القرآنية تثبتُ أنّه لا مانع من تخفيفِ المخفَّف. وتجدرُ الإشارة هنا أنّ لا فروقَ دلاليَّة بين القراءات، فالتحريك والتسكين للصامت الثاني لم يترك أثرًا أو اختلافًا في المعنى.

المبحث الثاني : الإشباع الصوتي :

معلومٌ أنَّ الحركةَ القصيرة إذا حدثَ لها مطلٌ ومدٌّ تتحولُ إلى حركةٍ طويلة، ويستغرقُ النُّطقَ بها مدةً زمانيةً تُساوي النّطقَ بحركتين وهذا ما يُسمى بالإشباع الحَركي، وهو إشباعٌ على مستوى الصَّوائت، وهناك أيضًا إشباعٌ على مستوى الصَّوامت، ويرى(ما ريو باي): "أنَّ الصَّوامت تطول وتقصر مثل الحركات " [2]، والإشباعُ في الصَّوامت عند المتقدمين هو الحرفُ المشدَّد الذي هو عبارة عن صوتين مكرَّرين، أولهما ساكن والثاني متحرك، فامتزجا في النُّطق واستغرق النُّطق بهما مدة النُّطق بصوتين منفردين، وهذا عند بعض اللغويين أمرٌ مضللٌ إذ يرونَ أنَّ المضعف ليس إلا مدُّ الصَّوت السَّاكن بتطويل مدَّة النّطق به، ومن الجديرِ بالذِّكر أنَّ الفرق بين الصَّامت البسيط والصَّامت المضعَّف فرق فونيمي، يؤدي إلى تغيير المعنى، وكذلك إشباعُ الحركات القصيرة قد يَنتُجُ عنه تغيُّرٌ في المعنى . لذا قد نجد في القراءات القرآنيَّة اختلافات ناتجة عن عمليّة الإشباع الصوتي إما على مستوى الصَّائت أو على مستوى الصَّامت . والإشباع الصوتي في اللغة يحدثُ لأسبابٍ منها ما هو صوتي كطلب الانسجام الصوتي وتسهيلِ العمليةِ النُّطقيّة والإسماع الصوتي، أو

[1] -سيبويه، الكتاب 167/4

[2] -ماريو باي، أسس علم اللغة، 146

لسبب دلالي مثل تقوية المعنى أو تأكيده أو زيادة معنى وإضافته[1]، ومثاله : قول الله تعالى : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾[2] قرأ يعقوب وخلف وابن مسعود (غَيَابَة) مفردًا، وقرأ نافع وأبو جعفر (غَيَابات) بالجمع، وقرأ نافع – في رواية – (غَيَّابَات)، وقرأ الحَسن (غَيَبَة) بفتح أوله والباء، وقرأ الحسن وأبي عمرو – في رواية– (غَيْبَة) بسكون الياء وفتح الباء، وقرأ الحسن (غِيْبَة) بكسر أوَّله وسكون ثانيه وفتح الباء[3]. والغَيْب في اللغة: هو كُلُّ ما غابَ عن العين، وقيل : ما اطمأن من الأرض، وغَيَابةُ كلِّ شيءٍ هو قَعْره .[4]

في هذه الآية تعدّدتْ أوجهُ القراءة في كلمة (غَيَابة) إذ جمعتْ نوعي الإشباع الصَّوتي إشباع الصَّوامت (التضعيف) وإشباع الصَّوائت، ففي الآية الكريمة وُرِدتْ خمسُ قراءات لكلمة (غَيَابَة) وهي :(غَيَابَات) و (غَيَّابَات) و(غَيَبَة) و (غَيْبَة) و (غِيْبَة)

فنلحظُ أنَّ الفرقَ بين قراءةِ (غَيَابَة)و(غَيَابَات)، هو فرقٌ ناتجٌ عن عمليّة إشباعٍ للصوائت، فالصَّوائت القصيرة إذا أُشبعت ينتجُ عنها صوائت طويلة من جنس الحركة، ففي قراءة (غَيَابَة) نجدُ أنّه قد أُشبعتْ حركة الفتحة على الباء، فنتجَ عنها ألف مدٍّ فصارتْ (غَيَابَات)، و يدعمُ هذا ما قاله ابن جني في تعليقهِ على قراءة (قَيْعَة) و(قَيعَات) فذكرَ من أوجهها : أنّه يكونُ أرادَ (بقَيعة) فأشبعَ فتحة العين"[5]. فالإشباع الصوتي هنا أثَّر في تغيير الصيغة الصرفية من الإفراد إلى الجمع . والإشباع الصوتي أيضًا نلاحظه في قراءة (غَيَّابَات)،لكن الإشباع هنا عن طريقِ إشباع الصامت الثاني، ففي قراءة (غَيَابَات) أشبع الصَّامت الثاني في الكلمة وهو حرف الياء، فلما أُشبع أصبح حرفين اثنين، الأول منهما صامت والثاني متحرك،

[1] - خالد حسان، في اللسانيات العربية122-128
[2] - سورة يوسف 10/12
[3] - عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات، 186/4
[4] - ابن منظر، لسان العرب، (غيب) 656/1
[5] - ابن جني، المحتسب، 113/2

وأصبحت كميَّة النَّطق أكبر، ونسبة الوضوح السمعي أعلى، وهو ما يحتاجهُ النَّاطقُ البدويّ في بيئته الخالية الشاسعة إذ تُنسب قراءة التشديد(غَيَّابات) للقبائل البدوية كتميم وأسد، فالتشديد سمة من سمات البدو النطقية [1]

وفي قراءتي (غَيَبَة) و(غَيْبَة)، نجد أنَّ القراءة الأولى أصلٌ والثانية فرعٌ عنها ؛لأنَّ اللغةَ تميلُ في النَّطقِ من الخفيفِ إلى الأخفّ فالفتحة أخفّ الحركات، والسكون أخفُّ منها إذ هو انعدام للحركة ؛ ولأن السُّلوك المقطعي للغة العربية يحاول التّخلُّصُ من تتابُعِ الحركات، فيعْمَدُ إلى قطعِ هذا التتابع بالتسكين، يقول عبد الصبور شاهين : " إنَّ السُّلوك المقطعي في اللغة العربية يكره تتابع الحركات ويعمدُ دائمًا إلى اختصارها، فإذا توالتْ ثلاثُ حركاتٍ اختصرها إلى اثنتين"[2]، وعليه فقراءة (غيبة) توالت فيها ثلاث حركات قصيرة، فتسكين الصَّامت الثاني قطع توالي هذه الحركات، فالتسكين يعطي قِصَرًا للمقطع واختصارا، وعلى هذا جاءت قراءة (غَيْبَة) طلبا للاختصار في النُّطق . أما القراءة الأخيرة (غِيبَة) بكسر الغين، فنلاحظ هنا أنَّ حركة الصَّامت الأول تأثرتْ بمجاورتها للياء، فتحولت حركة الغين من الفتح إلى الكسر، والكَسر يتلاءمُ صَوتيًّا مع الياء إذ هو بعض من الياء، كما قال ابن جني :" الحركات أبعاض حروف"[3] وهذا الإتباع الكائن على مستوى الصوائت، يُحقّقُ انسجامًا صوتيًّا في الكلمة، ويعطي قدرًا أقلّ من الجهدِ في النُّطق .

وتجدرُ الإشارة إلى أنَّ الإشباعَ الصوتي في اللغةِ يُعدُّ وسيلة في توليدِ الصَّيغ نحو قَتَل وقَاتَل، وغَلَق وغَلَّقَ، فنتنقل الصيغ بإشباع الحركة لصيغ أخرى، وتزيد في المعنى كالفرق بين غَلَق وغَلَّق فيصير في الدِّلالة توسع وزيادة، فقراءة نافع (غَيَّابات)فجمع مفرده (غَيَّابَة) فقد جاتْ على التشديد للمبالغة على زنة فَعَّالة، قال أبو الفتح : "أما غيَّابه فإنّهُ اسمٌ جاءَ على فَعَّالة، وكان أبو علي يضيفه إلى ما حكاه سيبويه من

[1] - عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، 182
[2] عبد الصبور شاهين، المنهج الصوتي للبنية العربية 158
[3] - ابن جني، الخصائص، 2/ 318

الأسماء التي جاءت على فَعَّال". [1]، وعند أبي حيان أنه سُمِّي باسم الفاعل الذي للمبالغة[2]، وقيل يجوزُ أن يكون على فَعَّالَات كـ (حَمَّامَات)، أو على فَيْعَالَات كـ (شَيْطَانَات)جمع شيطانة وكلٌّ للمبالغة[3]. فغيَّابات أوحتْ بالمبالغةِ والتكثير في تغييب لما في جوفِ هذا الجُب . أضفْ إلى هذا أنّ التشّدِيد أدّى إلى انتاج صيغة جديدة فيُعدُّ الإشباع وسيلة لتوليد الصيغ مع توسيع الدلالة، فـ(غيَّابات) على زنة فَعَّال من صيغ المبالغة، وانتقلَ بتشديدِ الصامت الثاني من الاسم إلى اسم الفاعل الدال على المبالغة فهو وصفٌ في الأصل . والمبالغة تفيد التنصيص على كثرةِ المعنى كمًّا أو كَيْفًا، وتعطي أيضا دلالة الاستمرار والتجدّد والملازمة. فدلالة الكثرة مختلفةٌ في القراءةِ المخفّفة عنها في المشددة. فعمليّة الإخفاء والتغييب تكونُ أكثر وبصورةٍ أكبر في غَيَّابات منها في غَيَابات . أمَّا قراءة الحَسن : (غَيَبَة) بفتح فاء الاسم وعينه ولامه من غير ألف فيحتملُ أن يكونَ في الأصلِ مصدراً كغَلَبَة، أو أن يكون جمع غائب كصانع وصَنَعَة[4] و القراءة الأخرى للحسن (غَيْبة) يجوزُ أن تكونَ حدثًا على وزن (فَعْلَة) من غِبْتَ غَيْبَةً، ويجوزُ أنْ يكونَ موضعًا على فَعْلة كالقَرْمَة، والجَرْفَة[5]. ويجوزُ أيضاً أن تكون (غَيَبَة) هي الأصلُ وجاءتْ (غَيْبَة) على التّخفيف. و(غَيَبة) بفتح فاء الاسم وعينه ولامه من غير ألف، جاء في معناها ظُلمة الرَّكية. فإذا كان بمعنى ظُلمة البئر، فإنّ الظلمةَ تكون مغيبة لما يكون فيها، فتكون بهذا المعنى لا تبتعد عن معنى القراءات السابقة في المعنى الكُلّي وهو الإخفاء والتغييب .

ومن أمثلة الإشباع الصوتي أيضًا قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[6] قرأ الجمهور (رِجالًا) وقرأ الحسن (

[1] - ابن جني، المحتسب، 333/2.
[2] - أبو حيَّان، البحر المحيط 284/5
[3] - أبو حيان، البحر المحيط 284/5
[4] - العُكبري، إعراب شواذ القراءات، 684/1
[5] - ابن جني، المحتسب/ 333/2
[6] سورة الحج 22/ 27

رُجَّالًا) وقرأ أيضًا (رُجَالاً)[1] . وراجلٌ في اللّغة أي ماشٍ والرُّجْلة: المشي راجلا وهو خلاف الراكب.

إن اختلاف القراءات في لفظ (رِجَالًا) من هذه الآية يكمن في نقطتين الأولى حركة فاء الاسم إذ تنوعت بين الضّمِ والكسر، يقول إبراهيم أنيس : " إذا رويتَ لنا كلمة بروايتين إحداهما تشتمل على ضمّ في موضع معين من هذه الكلمة، والرواية الأخرى تتضمّنُ الكسرَ في نفس الموضع من الكلمة، رجّحنا أنَّ الصيغة المشتملة على الضم تنتمي إلى بيئة البدو، وأنَّ المشتملة على الكسر تنتمي إلى البيئة الحضرية "[2] فمن هنا نحكم أن قراءة (رُجَالًا) تنسب للقبائل البدوية، و(رِجَالًا) تنسبُ لقبائل الحاضرة والحجاز .

والنقطة الثانية التي يكمنُ فيها الاختلاف هو عين الكلمة وهو (ج) فقراءة (رُجَّالا) نلحظُ أنها خضعتْ لعمليّةِ إشباعٍ صوتي على مستوى الصوامت وهو حرف الجيم وعلى مستوى الصوائت القصيرة وهي الفتحة من كلمة (رُجَالًا) ، فالجيم المشدّدة هنا عبارة عن حرفي جيم الأول منهما ساكن والثاني منها متحرّك أُدغمَت فصارا حرفًا واحدًا مشدَّدًا، وزمن النّطق بالحرف المشبّع أطولُ من زمنِ النُّطق بالحرف المخفَّف، أضفْ إلى ذلك أنّ الصوت المشبع يزيدُ في قوّة الإسماع في الصوت. لذلك تُنسبُ قراءة التشديد هذه إلى القبائل البدوية، ويُعلّلُ علم الدين الجندي ميل البدو إلى التشديد في الكلام بقوله :" ولمّا كان البدو يعيشونَ في الصحاري المترامية، هذه الصحاري يفنى فيها الصوت ويذوب في جنباتها فلا تكاد تتضح لذا حرص البدوي على توضيح أصواته حتى تُسمع، ولجأ إلى هذا بطرقٍ شتى منها الجهر، التفخيم، والشدة ".[3]

[1] - عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات، 104/6.
[2] - إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية 93.
[3]- علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، 657

فالقراءات كلُّها جمع لكلمة (رَاجل)، واختلفت في الصيغة، جاء عند النَّحاس : " يُقال في جمع راجل خمسةُ أوجه: رَاجِل، ورُجَّال، مثل راكب ورُكَّاب، وهذا الذي رُوي عن عكرمة، ورَاجِل ورِجال مثل: قائمٍ، وقِيام. ويقال: راجِلٌ وَرَجْلَة، ورَجْلٌ، ورَجَّالة، فهذه خمسة" [1] وفي اللسان : " وَالْجَمْعُ رِجَالٌ ورَجَّالَة ورُجَّال ورُجَالَى ورُجَّالى ورَجَالى ورُجْلان ورَجْلة ورِجْلة ورِجَلة وأَرْجِلة وأَرَاجِل وأَرَاجِيل"[2]

وقراءة الحسن (رُجَّالًا) فقد جاءتْ على وزن (فُعَّالا) وهذا الوزن يطّرد في تكسير ما كان وصفًا لمذكر على وزن فاعل صحيح اللام، يقول سيبويه : " باب تكسيرك ما كان من الصفات ويكسرونه أيضاً على فعَّالٍ وذلك قولك: شهادٌ، وجهَّالٌ، وركَّابٌ... وهذا النحو كثير " [3] كما أنَّ الإشباع وسَّع المعنى الدِّلالي، فمعنى (رِجَالًا) : أي مُشاة سائرين على أقدامكم أو ركبانا أي راكبين على كل دابة جُهزت للسفر، وقراءة (رُجَّالًا) جاءت على التشديد والإشباع الصوتي فهو هنا يعد وسيلة لتوليد الصيغ ومفردات جديدة، ففي الآية الكريمة صورتان لجمع (راجل)، وهذا يُعطي ثراءً للمخزونِ اللّفظي للعربية، ومعلومٌ أنّ أيّ زيادةٍ في المبنى قد ينتجُ عنها زيادة في المعنى، فقراءة (رُجَّالًا) لا تتساوى في المعنى الدقيق مع رُجَالًا أو رِجَالا، لكنّنا تُعطي معنى مزيدًا عن القراءتين الأخريين، فيوحي التشديد هنا بمعنى المبالغة في المشي أو يُعطي معنى الشدّة في السّيرِ على الأقدام، وهو معنى لا تُعطيه القراءةُ المخفَّفة.

المبحث الثالث: الإتباع الحركي :

ذهبَ ابن جني إلى اعتبارِ الإتباع ضربًا من الإدغام الأصغر، إذ هو تقريب الصَّوت من الصَّوت ولا سيما على مستوى الصوائت، فتتحوّل الضمّة إلى الكسرة إتباعا لكسرة

[1] - النحاس، معاني القرآن 398/4.
[2] - ابن منظور، لسان العرب، (رجل) 269/11.
[3] - سيبويه، الكتاب، 631/3.

بعدها، أو تتحوّل الكسرة إلى الضمة إتباعا لضمة بعدها، ويكونُ ذلكَ بتأثيرٍ بين الصوامت، فالمحدّثون من علماء الأصوات اللغوية قرروا أنّه قد يتجاوزُ صوتان لغويّان ويتأثّرُ الأوّل بالثاني،واصطلحوا على تسمية هذا النوع من التأثير بالرجعي وأحيانا يتأثّر الصوت الثاني بالأول وسمّوا هذا بالتأثير التقدمي[1] . والتأثّر الرَّجعي أو المُدْبِر هو الأكثر شيوعا في العربيَّة، واللسان العربي يهربُ من التنافرِ بين الأصواتِ فيميل إلى الانسجام الصَّوتي بين الصَّوائت، ومما يعد من قبيل المناسبة ما يسميه النُّحاة الإتباع على اللفظ، فليسَ لهذا النوع مبرّر من القاعدة، ولهذا السّبب لا يمكِن تفسير الإتّباع على اللّفظ في ضوءِ المناسبة الصوتية الموسيقية [2]. ومن القراءاتِ التي تظهرُ فيها ظاهرةَ الإتباع الحركي قراءة أبو السمّال في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾[3] فقرأ (بِهِيمَة) بكسرِ الباء اتباعًا للحركة الطويلة بالياء بعد الهاء، وهذا تأثير رجعي، فقد تأثّر الصَّوت الأول وهي حركة الفتحة بالصوتِ الثاني وهي الحركة الطويلة. و لم ينتجْ عن هذا الإتباع أي تغير دلالي للكلمة أو النَّص القرآني، وإنّما كانَ التغيّر الصوتي لعلة المناسبة والانسجام النُّطقي بين الحروف في الكلمة، وتُعزَى هذه القراءة إلى تميم [4]، ومن ذلك أيضًا قرأتا الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا[5]﴾، قرأَ الحسن (عَضَدا)، و (عُضُدَ) و(عُضْدا) بضمتين، و قراءة الجماعة (عَضُدا) بفتح العين وضم الضاد.، وقراءة الجمهور عند النحاس أنها الوجه الأفصح"، وهي الأصلُ عن العكبري" والغَضُد في اللغة ما بين الكتفِ والمرفق، وهي القوّة لأنّ الإنسان إنّما يقوى بعضده فسمّيت القوّة به وهي أيضًا بمعنى المعين .[6]

[1] - إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، 169.
[2] - خالد حسان، في اللسانيات العربية المعاصرة 86.
[3] -سورة المائدة 5/1
[4] -خالد حسان، في اللسانيات العربية المعاصرة، 86.
[5] - سورة الكهف 15/18
[6] - ابن منظور، لسان العرب، (عضد) 3/ 259.

وقراءتا الحسن (عَضَدا)، و (عُضُدَ) وقع فيهما الإتباع الحركي بنوعيه المقبل والمدبر ففي القراءة الأولى (عَضَدا) التي هي فرع عن (عَضُد) نجد أُتبعت حركة الحرف الثاني حركةَ الحرف الأول لعلّة التناسب والسهولة النطقية، فيكون هنا تأثير الحرف الأول في الثاني وهو تأثير مقبل، ونلحظ في القراءة الثانية للحسن (عُضُدا) والتي هي الأخرى فرع عن (عَضُدا) وقعَ فيها إتباع لكنه بتأثير مدبر، وهو تأثير حركة الحرف الثاني في الحرف الأول لعلة التيسير في النطق والانسجام الصوتي ؛ لأن النّطق بحركتين متماثلتين أيسر في العملية النطقية من النطق بحركتين متباعدتين، فالنُّطق بفتحتين أو ضمتين أيسر من النطق بفتحة تليها ضمة، أو ضمة ثم كسرة . ومعلوم أن القبائل البدوية تعمد إلى الاتباع كنوع من التخفيف وهي طبيعة لغوية لدى تميم والبدو بصفة عامة ؛ ولذلك تنسب قراءة (عَضَدا) إليهم، في حين أن قراءة (عُضُدا) بضمتين فقد عزاها ابن منظور إلى أهل تهامة نقلا عن أبي زيد فيقول :" أهلُ تهامة يقولون العُضُد والعُجُز "[1].

(عَضُد) اسم جامد للعضو المعروف واتخذ وصفًا على سبيل الاستعارة، وهو اسم ثلاثي مجرد، وزنه (فَعُل) بفتح الفاء وضم العين العَضُد مؤنثة لا غير، وهما العَضُدان، وجمعها أَعْضاد ولا يُكسَّر على غير ذلك، أما (عَضَد) بفتحتين فهي مخففة من وزن (فَعُل) ووزنها (فَعَل)، وقد تكون جمع عاضد على وزن فَعَل كـ خَدَم في جمع خَادِم " وقراءة (عُضُدا) بضمتين جمع على وزن (فُعُل) : "وهو جمع تكسير عاضد كجاذِم وجُذُم وراصِد ورُصُد"[2]، وهذا الوزن يجوز فيه ضم العين وتسكينها [3]، ومن حيث الدّلالة لا نجد هناك فروق واضحة في الدلالة بين القراءات فكلها تشترك في الأعوان والأنصار وهي من قولهم : "فلا يعضد فلانا إذا كان يقويه ويعينه" .[4]

[1] - ابن منظور، لسان العرب، (عَضد)292/3
[2] - الزمخشري، الكشاف، 728/2
[3] - الحملاوي، شذا العرب 76
[4] - الطبري، جامع البيان 166/5

ويقعُ الإتباعُ الحركي في الأفعال أيضًا، فنجد في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [1]

قرأ عاصم في رواية يحيى عن أبي بكر ورواية أبان (يهِدِّي) بكسر الياء والهاء وكسر الدَّال المشدَّدة، وابن محيصن وزيد عن يعقوب (يَهَدِّي) بفتح الياء والهاء وكسر الدَّال المشددة [2]، وقراءة الكسر ذهب البعضُ أنها لا تجوز لأنَّ الكسر في الياء ثقيل، وذهب آخرون إلى أن من قرأ بالكسرة في الياء إنما هو من بابِ الإتباع، حيثُ كُسِرت الياء إتباعا لكسرة الهاء بعدها، وكذلك كسرة الدَّال مع التشديد، وبذلك يعمل اللسان عملًا واحدًا في الكسرات الثَّلاثة، فيكون التأثير هنا تأثيرا مدبرا، إذ أثَّر الصَّوتُ الثّاني في الصّوتِ الأوَّل فأُتبعتْ حركةُ الياء في الفعل حركةَ الهاء ؛ وذلك للتقْريبِ بين الحركاتِ في النُّطق، وليعملَ اللسان من جهةٍ واحدة وهذا من التخفيف في النُّطق، على الرغم من أنَّ العربية الفصحى معروف عنها فتح أحرف المضارعة، لكنّ الكسر سمةٌ لهجيّةٌ قديمة ومعاصرة وهي ظاهرة تعرف بتلتلة بهراء، كما أنها ظاهرة سامية قديمة توجد في العبرية والسريانية والآرامية"[3]،وتُعزى إلى تميم وأسد وقيس وربيعة، وهي قبائل وسط الجزيرة وشرقيها "[4] ويضيف الدكتور رمضان عبد التواب أن" هذه الظاهرة – كسر حرف المضارعة– سامية قديمة، توجد في العبرية والحبشية، والفتح حادث برأيه في العربية بدليل عدم وجوده في اللغات السامية الأخرى، ويقدم دليلا آخر على أصالة الكسر في حروف المضارعة هو استمراره في اللهجات المعاصرة ولم يبق فتح أحرف المضارعة في اللهجات الحديثة إلا لهجة نجد". [5]

[1] سورة يونس 35/12.
[2] - عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات 456/3
[3] - إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، 139.
[4] خالد حسّان، في اللسانيات العربية المعاصرة، 91.
[5] - رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات، 267

أما قراءة (يَهَدِّي) وتحريك الهاء هنا بالفتح إنما هي دليل على أن الفعل أصله (يَهْتَدي) والفتحة نُقلت من التاء إلى الها الساكنة، وهي دليل على حركة الحرف المدغم في الدَّال، إذ حدث إدغام بين التاء والدال ؛لأنهما من مخرج واحد، وهما حرفان أسنانيان لثويان . وما حدث في هذه القراءة هو التأثر بين الحروف، فأُتبعت حركةُ الصَّامت الثاني حركةَ الصامت الأول وهذا تأثير مقبل .

وقراءة الجمهور (يَهْدي) من هَدَى،على وزن فَعَل، وقراءة (يَهَدِّي) أصلها (يَهْتَدي) على وزن (يَفْتَعل) والقراءة الأخيرة (يِهِدِّي) أصلها (يِهْتدي) فعلى وزن (يِفْتِعِل) والميزان الصرفي إنما يزن على الأصل .

والقراءات جميعا كما قال القرطبي :" ومَعْنَاهُ: يَهْتَدِي –فِي جَمِيعِهَا "، فهي على معنى الهُدى وهو الرشاد والدّلالة، "(أَفَمَنْ يَهْدِي) أَيْ يُرْشِدُ. (إِلَى الْحَقِّ) فتأويل الكلام إذًا: أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع، أم من لا يهتدي إلى شيء إلا أن يُهدي؟. "[1]

المبحث الرابع : الحركة على أصواتِ اللين :

إنّ صوتي (الواو والياء) قد يخرجان من حيّزِ الحركات الطويلة إلى حيّزِ الصوامت إذا جاءا متحرّكين، فيجري عليهما ما يجري على الصَّوامت الصحيحة، ولكنَّهما يتميزان عن الصَّوامت الأخرى في تعاملهما مع الأصوات الصائتة . والأصل أنَّ الواو والياء لا يكونا صائتين إلّا بعمليّةٍ عُرِفَتْ عند الأصواتيين المحدثين بعملية الاتحاد، وقد اختلفَ المحدثون في تسميتها فقد ذهبَ بعضهم إلى مصطلح (أنصاف صوامت) وبعضهم إلى تسميتها بـ (صوامت ضعيفة)، وطائفة ثالثة اطلقوا عليها(أشباه الصوائت)، يقول فيها د. محمود السعران : "يُطلقُ هذا المصطلح على صوائت انزلاقية يحدث فيها أن تبدأ الأعضاء بتكوين صائتٍ ضيق (كالكسرة مثلا) ثم تنتقل

[1] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 341/8.، الطبري، جامع البيان 180/11

بسرعةٍ إلى صائتٍ آخر أشدّ بروزا، ولا يدوم وضع الصائت الأول زمناً ملحوظاً. والذي يدعو إلى إدراج هذه الأصوات تحت طبقة(الصوامت) هو ما تتميّز به من انتقال سريع مع ضعف في قوة النفس (الزفير)، وفي العربية صوتان ينطبقُ عليهما هذا الوصف هما الواو مرادا بها مثل واو (وَجد) والياء مرادا بها مثل ياء يَزن" [1] . ولا تُقلب هذه الحروف إلى حركات طويلة في الكلمات إلا بعد مرورها بمراحل في عملية ارتقاء ونمو الكلمة، وقد تكون المفردات المشتملة على أنصاف الصوامت ماهي إلّا مرحلة من تلكَ المراحل التي تسمّى ب(الركام اللغوي) ومعناه" أنّ الظاهرةَ اللغوية، قبل أن تموت، قد تبقى منها أمثلة، تُعين على معرفة الأصل"[2]

فنجد بقايا هذه الظاهرة في النصوص المنقولة إلينا، وخاصّةً في القراءاتِ القرآنية، فالمتأمّل مثلًا في بعض القراءات الواردة في قول الله تعالى﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾[3] قرأ حميد (يُطْوِقُونه)و قراءة الجمهور (يُطِيقُونَه) بياء بعد الطاء وكسر ما قبل الياء، ذهبَ المتقدمون إلى أنَّ أصلَ الفعلِ هي قراءة حميد، فالواو مكسورة وقبلها طاء ساكنة، فتنتقل الكسرة إلى الساكن الصحيح قبلها، إي إلى الطاء فيصير الفعل (يُطْوِقُونه) ثم تقلب الواو ياء لانكسار ما قبلها، ويعلق النَّحاس على ذلك، بقوله : "(يُطِيقْونه) والأصل (يُطْوِقُونَه) وقد قُرئت به فقُلِبتْ حركةُ الواو إلى الطَّاء، فانقلبت الواو ياء " [4]

وقراءة حميد من (أَطْوَق) كقولهم (أَطْوَل) في (أطال)، وهو الأصل، وصحّة حرف العلّة في هذا النحو شاذّة من الواو والياء، والمسموع منه أجود، فقراءة حميد جاءت على الأصل فتصحيح الواو فيها إنّما هو شاذٌ في القراءةِ لأنَّ الفعل كالصحيح، فلم يحدثْ فيه إعلال، في حين أنّ الإعلال جاء في قراءة الجمهور .

[1] - محمود السعران، علم اللغة، 149.
[2] - رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، 268.
[3] - سورة البقرة 184/1.
[4] -النحاس، إعراب القرآن 79/1

الواو في قراءة حميد جاءت دون إعلال مع أنَّ القياس يقول أنَّ الواو تقلب ياءً لانكسار ما قبلها، مثل ما جاء في قراءة الجمهور، ولكنَّ في التفسير اللغوي الحديث فإنّ القراءة في ضوءِ نظرية (الركام اللغوي) [1]وتعتبر دليلًا على ظاهرة لغوية ماتت واندثرت، إذ تُعتَبر نظرية الركام اللغوي أنّ ما يكون في اللغة شاذاً إنما هو بداية أو إرهاصًا لتطوّر جديد لظاهرة من الظواهر اللغوية، تسود حلقة تالية وتقضي على سلفها في الحلقة القديمة، وتذهبُ هذه النظرية أن الظاهرة اللغوية الجديدة لا تمحو القديمة بين ليلة وضحاها بل تسيرُ معها جنباً إلى جنب مدّة من الزمن، وهي حين تتغلبُ لا تقضي على القديمة قضاءً تاماً بل يتبقّى منها بعض الأمثلة التي تصارع الزمن وتبقى.

وعلى هذا تكون قراءة حميد تمثّل مرحلة من مراحل التطور وهي مرحلة أسبق من المرحلة التي عليها قراءة الجمهور، لأنَّ تحريك الواو والياء ومعاملتها كالصحيح هي مرحلة أولى من مراحل تطور الأفعال المعتلّة في العربية وقد بقي منها عدة أمثله في العربية مثل (عَورَ، خَورَ) ومنها أيضا قراءة حميد في هذه الآية. ونخلص مما سبق إلى أمرين :

الأول: أنَّ الفرق بين قراءة حميد وقراءة الجمهور تكمن في أنَّ عين الفعل في قراءةِ الجمهور هي الياء وهي حركة طويلة، في حين أنَّ قراءة حميد كانت عين الكلمة (واو) متحرّكة وليست حركة طويلة، والتي تعتبر نصف حركة من الناحية الصوتية .

الثاني : يتبيَّن أنَّ قراءة حميد قد دلّت على الأصل في الفعل، وهي قراءة أسبق تاريخيًّا من قراءة الجمهور، ولمّا كانت العَربية تميل إلى التيسيرِ في الكلام حُرِّكت الواو بالضم لتصبحَ حركةً طويلة .

ومن أمثلة تحريك صوت اللين أيضًا قراءة وردتْ في قوله تعالى : ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ

[1] -رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات، 68.

وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [1] قرأ الجمهور (مَثُوبَة)، وقرأ الحسن (مَثْوَبَة) فنلحظ وجود صورتين للكلمة: (مَثْوَبة) بسكون الثاء وفتح الواو و(مَثُوبَة) بضم الثَّاء ثم حركة طويلة(الواو) . ومثوبة في اللغة : من الثَّواب وهو جزاء الطاعة .

فكلمة (مَثُوبة) لها صور أخرى وهي (مَثْوَبة) وهي قراءة الحسن، وهناك (مَثابة)، جاء في اللسان : " قال الكلابيين لَا نَعرِف المَثْوَبةَ، وَلَكِنِ المَثابة. وثَوَّبه اللهُ مِن كَذَا: عَوَّضه، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ. واسْتَثابَه: سأَله أَن يُثِيبَه "[2] ولابن جني تعليق على قراءة الحسن (مَثْوَبَة) يقول فيه: "أنَّ هذا مما خرج على أصله . شاذ عن بابه وحال نظائره، ومثله مما يُحكَى عنهم قولهم : الفكاهة مَقْوَدة إلى الأذى وقياسهما مَثَابَة ومَقَادَة .. ومَثْوَبة مَفْعَلة ومَثُوبَة مَفْعُلة، وأصلُ مثَوْبَة مَثُوبَة، فَنُقِلتْ الضّمَّة من الواو إلى الثاء، ومثلها مَعْوَنة. "[3]، وذكر العكبري في قراءة الجمهور أنّ أصلها ضم الواو مثل مكرمة، إلا أنهت خففت، وهذا ما يسمى الإعلال بالنقل فإذا تحرّكت الواو والياء وسُكّن ما قبلها، فالقياس أن لا يعلا بالنَّقل ولا القلب؛ لأنَّ ذلك تخفيف، لكنَّ إنْ اتفق أنْ يكون ذلك في فعل قد أُعلَّ أصله بإسكان العين أو في اسم محمول عليه، سُكِّن عين ذلك الفعل، والمحمول عليه إتباعا لأصله وبعد الإسكان تنقل الحركة إلى الساكن المتقدم."[4]

و في حقيقة الأمر أنَّ الإعلال بالنقل جاء على صورتين في نظر قدامى العرب هما :

[1] - سورة المائدة 60/5
[2] - ابن منظور، لسان العرب، (ثوب) 498/10
[3] – ابن جني، المحتسب 213/1
[4] -الاستراباذي، شرح الكافية، 144/3

الأولى : حذف حركة حرف العلّة، و قد أشاروا إلى مسألة الخفة و الثقل في الحركات القصيرة، التي تشكل بها الصوائت، و ذلك لأنّهم لم يميزوا بين الصوت الانتقالي و الصائت الطويل .

الثانية : نقل حركة حرف العلة، و هذا الأمر لا يمت إلى الواقع الصوتي بأية صورة .

ففي قراءة الحسن (مَثْوَبة) حرف اللين (و) مفتوحًا وهذه القراءة تمثل مرحلة متقدمة من مراحل تطور المعتل، وكونه جاء مفتوحًا فهذا يشكِّل صعوبة نطقية ؛ لأنّ في الدراسات الصوتيّة الحديثة قاعدة تقول : اللّغة تكرهُ صوت اللين في بنية الكلمة فتحوله إلى صوت مد، فالقراءتان تظهران مسألة النّمو والتدرج في حياة الكلمة، وأن كل منها على درجة في سلم الارتقاء اللغوي ومرحلة من مراحل النُّضج والتَّطور. فقراءة الحسن(مَثْوَبَة) نقلت لنا الصورة الأقدم للكلمة، وحافظت عليها، وقراءة الجمهور تُصوّرُ مرحلة متطورة عن قراءة الحسن، فتكون قراءة (مَثْوَبة) أقدم تاريخيّاً من قراءة الجمهور. كما أنّ قراءة الجمهور تنسب إلى التميميين فكثيراً ما يلجؤون إلى التغيير والتبديل للانسجام الصوتي، وطلبا للخفة، فالكلمات عندهم تخضع عادة للتغير بحثاً عن السهولة، وعند الحجازيين عادة ما تبقى بعض الكلمات على صورها الأولى لذا تُنسب قراءة الحسن إليهم، يقول الجندي :" أما اللهجة الحجازية فالتطور لم يتم دورته فيها بما يكفي وتحقيق المماثلة الصوتية فبقيت على حالها محافظة".[1] والقراءة في الميزان الصرفي نجد أن قراءة الجمهور (مَثُوبة) مصدر سماعي بمعنى الثواب، وقيل هو على وزن اسم المفعول من ثاب بحذف واو مفعول وأصله (مَثووبة) بضم الواو الأولى، أو بحذف عين الكلمة، وذلك بنقل ضمة الواو إلى الثاء ؛لاستثقالها وتسكين الواو ثم حذف الواو الأولى لالتقاء الساكنين في الواوين، وقيلَ هي مصدر على وزن (مَفْعُلة) بضمِّ العين، وإنما نُقلتْ الضمة إلى الثاء التي هي فاء

[1] - علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث 531/2.

الاسم . وقراءة الحسن (مَثْوَبة) فعلى وزن مَفْعَلَة) .يقول ابن جني : " مَثْوبة مَفْعَلة و مثُوبَة مَفْعُلة" [1]

خاتمة بأهم النتائج :

–إهمال الكتب الصرفية الاستدلال بالقراءات القرآنية أو التمثيل بها أو الاعتماد عليها في التقعيد، فقراءة (نَحْس) بسكون الحَاء، في قوله تعالى ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾هي صفةُ من الفِعْل (نَحِسَ) وهو وزنٌ لصفةٍ لم يذكره الصَّرفيون في مجمل أوزان الصِّفات التي تجيء من الأفعال التي تكون على وزن (فَعِل).

– احتفظتْ لهجةُ عُقيل بظاهرة ساميَّة قديمة وهي الميل إلى فتح ما ثانيه صوت حلقي، وأكدتْ الدراساتُ الصوتية الحديثة وجود تلاؤم نطقي بين الحروف الحلقية والفتح .

–إنَّ عمليّة إشباع الصوائت (الفتحة، الضمة، الكسرة) لها دور وأثر في العَدد، فقد تُخْرِجُ الصيغةَ من الإفراد إلى الجمع كما في قراءة (غَيَابة) و (غَيَابات) فإشباع الفتحة على الباء أخرجَ الكلمةَ من الإفراد إلى الجمع .

– إذا جاءتْ كلمتان إحداهما بالكسر، والأخرى بالضم في موضع واحد من الكلمة، فتكون الكلمة المشتملة على الضم منسوبة إلى أهل البادية ؛ فالضم فيه نوع من الجلفة والشدّة وهذا يلائم طبع البدوي، في حين أنَّ المفردة المشتملة على الكسر فتُنسب إلى أهل الحاضرة ؛ فالكسر فيه ليونة ورقة تلائم طبع الحضري وبيئته المترفة.

[1] - ابن جني، المحتسب 213/1

-القراءة الشّاذّة (مَثْوَبة) جاءت على الأصل من الكلمة،وعلى المرحلة الأولى من مراحل تطورها، وعلى هذا تكون القراءة الشّاذّة أقدم تاريخيّاً من قراءة الجمهور (مَثُوبة). وبهذا تكون القراءات الشَّاذّة وثيقة تاريخية لمعرفة الصُّور التي كانت عليها بعض الكلمات .

ثبت المراجع :

-الأستراباذي، رضي الدين : شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق : محمد محي الدين وآخرين، دار الكتب، العلمية بيروت، 1982م.

-أنيس، إبراهيم :

-الأصوات اللغوية، ط3، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1995م .

-من أسرار اللغة، ط3، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1996م

- ابن جني، المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق : علي ناصف، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح شلبي، ط2،دار سنركين للطباعة والنشر، القاهرة،، د.ت

- الجندي، علم الدين، اللهجات العربية في التراث، ط2، دار الكتب العلمية، 1983م

-حسَّان، تمَّام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها،ط3، عالم الكتب، القاهرة، 1990م.

-حسَّان، خالد إسماعيل، في اللسانيات العربيّة المعاصرة، ط2، مكتبة الآداب، القاهرة، 2014م

– الحملاوي، أحمد، شذا العرف في فن الصرف، شرحه وصححه وعلق عليه : حسني عبد الجليل، مكتبة الآداب، القاهرة. د.ت.
– أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق :عادل أحمد عبدالجواد وآخرون، ط، 6المكتبة العلمية بيروت. د.ت
الخطيب، عبد اللطيف، معجم القراءات، دار سعد الدين، دمشق، 2002م .
– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل، ط3، دار الكتاب العربي، 1988م.
–السامرائي، فاضل، معاني الأبنية، ط2، دار عمان، 2007م.
–السَّعران، محمود، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت.(د.ت)
– السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق : أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، د.ت .
شاهين، عبد الصبور :
– القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة. 2007م.
–المنهج الصوتي في البنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي، مؤسسة الرسالة، القاهرة، 1977م.
–سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق : عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي القاهرة، 1988م.
–عبد التواب، رمضان ، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1995م.
– عضيمة، محمد عبد الخالق، المغني في تصريف الأفعال، ط3، القاهرة، دار الحديث، 2005م.
–العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، التبيان في إعراب القرآن . تحقيق :علي فهد بجاوي، د.ت.
–الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، دار السرور، بيروت، 1995م.
–القيسي، مكي بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات، تحقيق : محي الدين رمضان، ط3، مؤسسة الرسالة 1974م.
–ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة :أحمد مختار عمر، ط2، عالم الكتب، 1983م.
–النحاس، أحمد بن محمد إسماعيل، إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي، القاهرة، 1985م.